الفصل الثّالث

مسيرة وبناء

التّعليم والتّطبيب جناحا أيّ أمّة، فإذا كان التّعليم منهجيًّا متينًا، والطّب قويًّا في وقايته، ناجحًا في علاجه، فقد سلمت البلاد والأمّة من غوائل الجهل، وجوائح المرض، وسوف تتجاوز أيّ عقبات تعترض طريقها نحو العلياء.

عمر

منبع شغفي

آلاء اللّه على المرء ونعمه لا تعدُّ ولا تحصى، ومن حسن حظِّ الإنسان أن يعمل في مجال يحبّه، وفي حقل يجد نفسه مقبلة عليه، شغوفة به، حريصة فيه على حسن التّدبير، وكمال الإنجاز. ولذلك فمن الحكمة اللّازمة، إخطار طلّاب المرحلة الثّانويّة بالمسارات الدّراسيّة المتاحة، مع توضيح حاجات سوق العمل المتوقع خلال عقد قادم؛ كي يختار الطّلاب تخصّصاتهم على بيّنة ومعرفة.

وحين رجعت إلى بلادي، وتيّسرت لي فرصة العمل في جامعة الملك سعود بالرّياض، أستاذًا ضمن طاقمها الأكاديمي في كلّية الطب، وطبيبًا في مشفاها الجامعي، شعرت بتوافق داخلي، وارتياح كبير، حيث أمارس الطّب من ناحية، وأسلك طريق العلم

والتَّعليم من ناحية أخرى، وكلٌّ واحدة تأخذ من الثَّانية وتعطيها، فهما لبعضهما منبع، ومصب.

كنت أعاين المرضى، وأستقبلهم في العيادة، أو أزورهم في الأجنحة، وهذا التَّطبيق العملي زاد لي إذا وقفت أمام الطّلاب للشّرح، واستعراض الحالات، وذكر الأمثلة العمليّة. وحين أدلف إلى قاعة الدَّرس، وأخلو بأبحاثي، أكون قد قرأت وحضّرت، ثم أستفيد من النّقاش والمباحثة، فيعود الأثر العلمي على الأداء العملي عند رجوعي للمرضى مرَّة أخرى.

ومن ضرورات العلم والعمل، أن يحملهما الإنسان بأمانة، ويقدِّرهما حقَّ قدرهما، ومع الأسف أنَّ معاني الأمانة تتعرض لتقزيم كبير، وتهميش خطير، فتحصر في زاوية الودائع؛ بينما معناها أشمل وأعظم، ولو كانت كما يعتقد البعض، لما أشفقت منها السّموات والأرض وأبين أن يحملنها!

وما أثقل الأمانة حين يجمع الواحد في مهنته بين التّطبيب والتّعليم، فهما من أقدس المهن وأسناها، لأنَّ الطّب يتعلّق بصحة المجتمع، ومستقبل الأسر، وأسرار الأفراد، وفي التّعليم حياة الأمم، وقوة الدّول، وهو السَّبيل الوحيد إلى أي تغيير

محمود، أو تطوير منشود، ورحمة الله على الإمام الشّافعي الذي كان يقرن بين الفقه والطّب، ويأسف على تضييع الأخير من قبل المسلمين.

رسالة سامية

من عظيم فضل الله على العلم وأهله، أن جعله ولاية لا تمنح بشفاعة أو واسطة، ثمّ أكمله بتعذّر نزعها من صاحبها إذا غُضب عليه، أو صرّح بما يعتقده الصّواب، وهذه مزيّة ترفع قدر العلم عاليًا، وتجعل المناصب تتقاصر دونها، فالمناصب تُبنى على اختيار قد يوافق الاستحقاق أو يخالفه، ثمّ تنزع بعدل أو اعتداء، وهذا ما لا يكون مع العلم أبدًا، ولا يتصوّر أصلًا.

ولا تقتصر العمليّة التعليميّة على مجرّد إلقاء المحاضرات، وحشو المعلومات، فهي عمليّة بناء تراكمي، يشتبك فيها العلم مع الخُلق، والمعرفة مع الإيمان، والعبادة مع العمل؛ ويقود السُّؤال والحوار فيه إلى بحث ماتع مثمر، ولذلك كنت أخصّصُ

أوّل دقائق كلِّ محاضرة، لبثّ هذه المفاهيم بين الطّلبة من الجنسين، فإنّ آداب العلم توازي موضوعه في الأهميّة.

فما أعظم طالب العلم حين يعلم أنّه يسلك في طريقه العلمي دروبًا نحو الجنّة، وما أكبر الأثر عليه حين يستقر في روعه أنّه يؤدي عبادة عظيمة، وهو يتعلّم أو يعلِّم، وأيّ شعور يحمل السُّمو كلّه حين يرى الإنسان أنَّه في الأرض خليفة، يعمرها، ويطوّرها، وينشر الخير والإحسان في ربوعها!

وإنَّ الأستاذ لا يستطيع أن يحسن تنفيذ رسالته ما لم يشعر أنّه في عمليّة تبادليّة، يعطي العلم ويأخذه، يفيد الطّلاب ويستفيد منهم، هو مصدر لهم بأصل العلم، وهم روافد له بنقاشه، فيتهيّأ للمحاضرة كما لو كان سيلقيها أمام كبار أهل الاختصاص، ويتعامل مع الطّلاب كما لو كانوا أبناءه، ويجعل من أسئلتهم سببًا للبحث، ومن حواراتهم طريقًا لطلب العلم.

وفي هذا السّياق، كنت حريصًا على رفع معنويات الطّلاب من الجنسين، فأخاطبهم كما لو كانوا أطبّاء فعلًا، وأسألهم عن أسمائهم كاملة، تقديرًا لهم ولوالديهم وأسرهم، وأجتهد في

جعلهم على ميزان سواء، ليس فيه تفضيل، أو تقديم، أو تأخير، إلا بحقٍّ لا يثلم المروءة، ولا يخدش شرف المهنة.

وممّا حرصت عليه، تكرار الدَّعوة إلى إتقان العمل، فليس مطلوبًا منَّا مجرَّد العمل، فهذا شأن يحسنه كلّ أحد، بل المطلوب وعين المطلوب، هو إتقان العمل، وبلوغ درجة من الجودة تجعل الأداء نموذجيًّا راقيًا، ولا يتحقّق هذا الأمر، ما لم يستقر في خلد الطّالب، وطالب الطّب خصوصًا، أنّه يمثل قيمة عُليا، وليس سعرًا في السُّوق، يتأثّر بموجات العرض والطّلب!

الارتقاء بالتّخصص

كما أنّي يمّمت وجهي شطر خدمة التّخصّص أكاديميًّا، وكان تخصّص الجلديّة حين عودتي للجامعة وحدة ضمن قسم الباطنة، فأصبحت رئيسًا لهذه الوحدة عام ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، وكان هدفي تحويلها إلى قسم يماثل باقي أقسام الكلية، فلن يكون للتّخصّص وضعه الصّحيح ما لم يكن قسمًا مستقلًّا.

ولذلك حرصت خلال رئاستي للوحدة، على أنشطة مختلفة، ما بين لقاءات، ومؤتمرات، واستقطاب كفاءات، ومتابعات إدارية، وجهود حثيثة، ونقاشات مثمرة، حتى أصبحت الوحدة قسمًا منفردًا بذاته عام ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، وغدوت أوّل رئيس للقسم بفضل الله، وذلك حمل ثقيل، وأمانة ومسؤوليّة كبيرة تجاه العلم، والبلد، والنّاس.

وأصبح القسم الجديد قدوة لوحدات كثيرة؛ سلكت الطّريق ذاته، وتحوّلت إلى أقسام منفردة، وما أجمل أن يكون عمل المرء إمامًا لغيره، وموضعًا للاقتداء.

وبعد قيام القسم تابعت مسيرة العمل باتجاهات تصبُّ كلُّها في خدمته، ومنها تعيين الكفؤ المتميز من المعيدين والمعيدات، وتحويل الدّبلوم الدّراسي إلى زمالة، وإنشاء مجلس علمي، وتفعيل الجمعيّة السّعوديّة لأمراض وجراحة الجلد، وشاركني في ذلك زملاء كثر؛ وجزء من هذه الأعمال سأتوسع فيه ضمن الفصل الرّابع بإذن الله.

الاهتمام أساس العلاج

في ممارستي الطبيّة، كنت حريصًا على الإصغاء الحقيقي للمريض، ومنحه كامل الاهتمام، خاصّة في الزِّيارات الأولى، وإبداء التّوقير التّام له، وسوق التّطمين المعقول له، كي يهدأ روعه، وينساب في التَّعبير عن مكنونه؛ وما يشعر به بتلقائيّة، وصدق، ووضوح.

وما أرفع أدب الإنصات وأعظم أثره على المريض، وهو جانب قد يغفل عنه الطّبيب في زحمة المواعيد، وكثرة المراجعين، مع أنّه ركن ركين في التَّعاطي مع المريض، ولا مناص من تطويل مدّة أوّل زيارة على وجه الخصوص، ومنح المريض الوقت الكافي للشّرح والبيان.

وكثيرًا ما ذكرت لطلّابي وطالباتي أهميّة الإصغاء في العلاج، ويتشارك معه التّواصل البصري الدّافئ غير المريب مع المريض، كي يشعر بقرب الطّبيب، وحرصه على شفائه بأمر الله، وأشير إلى ضرورة إبعاد الحواجز التي تفصل بين المريض وطبيبه؛ مثل جهاز الكمبيوتر، وغيره.

ولـم أتـرك طلابي دون أن أحيطهم علمًـا بعصارة خبرتي في العيادة، ومحصّلة مسـيرتي العلاجيّة مع المرضى والمراجعين، وهـي أنَّ المريض أوّل كتـاب يفتحـه الطّبيب؛ كـي يعرف العلاج المناسـب، ويسـتفيد طبيًّا، فمعرفة الحال والواقع جزء مهم من التّشخيص، ثمّ العلاج.

وممّـا التزمـت بـه طيلـة ممارسـتي الطبيّـة، كتمـان أسـرار المريض، والمحافظـة عليهـا، وتثبيـت هـذا المعنـى في نفوس طلّابـي وطالباتـي، فـإنَّ البـوح بشـيء يخصُّ المريض خيانـة للمهنـة، وخـرق لقسـمها، وإيـذاء للمريض، وقد يدخـل في باب كبيـرة الغيبة، والواجـب الأخلاقي يتعاظم علـى أصحاب المهن التـي لا تنقطـع حاجـة المجتمع لها، ولا مفرَّ لهـم من أن يرعوها حقَّ رعايتها.

وسـعيت لبلـوغ أمريـن عسـيرين، ولا مناص منهمـا في العمل الطّبي، فأوّلهما إبداء صادق الاحترام، وكبير التَّقدير للمريض، علـى أن يكـون ذلـك السّـلوك حقيقيًّـا غيـر مصطنـع، يشـعر به المريض من لغة الجسـد قبل كلمات اللّسـان، ومن نبرة الحديث قبل مفرداته، فهذا أوّل جسر بيني وبين المريض.

وثانيهما، تطمين المريض بحقّ، فما أشنع التَّهويل، ولا يقلّ جرمه عن التَّهوين، وفي التَّوسط، وبيان الحال بلغة إيجابيّة، مع فتح منافذ الأمل، وقفل مداخل اليأس، بناء طريق سالك لعلاج المريض، وتخفيف ألمه، وتيسير تقبّله لطبيعة شكواه، ومسار علاجها، وتوّقع مآلاتها.

تعزيز الطّمأنينة!

من تجاربي التي مررت بها كثيرًا بحكم التّخصص، مقابلة مرضى البهاق، هذا المرض الذي يقضُّ مضاجع الكثيرين، مع أنّه مرض غير معدٍ، ولا يختلف أثره الوراثي عن أمراض أخطر منه كالسُّكري وتصلّب الشّرايين، وعلاجه ناجع في ثلاثة أرباع الحالات، ونسبته المحليّة مثل نسبته العالميّة، وينبغي ألّا يكون عائقًا دون الزَّواج، وأن يُتعامل معه دونما هلع.

وأعتبر أنّي بحمد الله نجحت في تخفيف غلواء شعور المصابين به، وتراكمت لديّ خبرة في التَّعامل مع المرض، ومع المصابين به، وتحدثت عنه في لقاءات علميّة وتلفزيونيّة،

ثـم أُتيحت لي المشـاركة في جمعيّة نفع عـام، خاصّة عن البهاق ومرضاه كما سيأتي.

وأكثر ما يقلق مرضى البهاق، ويربك تفكيرهم، خشيتهم من الوصمـة الاجتماعيّـة بسـببه، وهو خطـأ مجتمعي شـائع، بيد أنّ تثقيـف المجتمـع يقود إلى تغيير هذه الصّـورة الخاطئة، ومهنيّة التَّعامـل مـع مرضاه كفيلة بتخفيـف وقعه على نفوسـهم، وزيادة اسـتقرارهم النّفسي، بل وسجودهم شكرًا للّه على سهولة أمره، ويسـر علاجـه، وإنّ الطّـب الوقائـي لعظيـم المنفعـة فـي تقليـل الحاجة إلى الطّب العلاجي، وهذا ما سنعرض له لاحقًا.

ثمار العلم والممارسة

ممّـا اسـتقر في نفسـي خلال الممارسـة الطبيّـة، أنَّ الطَّبيب يتّخذ قراره بناء على موازنات دقيقة، ولا بدَّ له من تمام التَّمكن، وعميـق الثَّقـة، كي يقدِم علـى صنع القـرار، واتّخـاذه، وتنفيذه، دونمـا هيبـة أو تـردّد، خاصَّـة إذا أحسـن الطَّبيـب الموازنة بين

المنافع والأخطار، وأجاد معرفة المصلحة من المفسدة، وعرف الخير للمريض من خلافه.

ومن الثّوابت المستقرة لديّ، ضرورة مواصلة التّعليم الطّبي المستمر، ومعرفة الجديد، والإحاطة بما يدور في الأروقة العلميّة، وحضور برامج تدريبيّة، وورش عمل، ومؤتمرات علميّة، وتطوير المهارات الذّاتيّة، فمن لا يتقدّم يتأخر، ولا يظلّ واقفًا في مكانه، وهذه سنّة في كلّ شيء.

ولذا كان لي عناية بأسلوب التّعليم المبنّي على حلّ المشكلات، بصفته طريقة في التّعليم قائمة على حلّ المشكلات، وهي طريقة متعارف عليها دوليًّا، ومتبعة في عدد من الكليات والجامعات، ويعود اهتمامي بها إلى سنوات قديمة، وكان لي عناية بهذه الطّريقة في التّعلّم والتّعليم، وسررت كثيرًا لزيادة الالتفات إليها، وحرص الزّملاء عليها؛ لأنّها تعليم مرتبط بالواقع والمشكلات الحقيقية، وليست تلقينًا محضًا، ومن ثم يرتفع لدى الطّلاب مهارات التّفكير، مع إحساسهم بالمشاركة الإيجابيّة الفاعلة في العملية التّعليمية، وأنّ دور الطّالب أكثر من مجرّد متلقي في قاعات الدّرس.

وعـاد عليّ التَّدريـس الجامعي باسـتمرار الحيويّة والنّشـاط، وإبقائـي فـي حلبة العلم متعلّمًـا ومعلّمًا ومناقشًـا وباحثًا، وكانت أجيـال الطُّـلاب المتعاقبـة نعمة مـن الله، فهم زاد لـي، يعينوني علـى نفسـي، فأقـرأ، وأبحـث، وأكتـب، وأشـارك فـي المجامـع العلميّة، وأكون قريبًا من كلّ جديد.

وقـد لفـت نظـري، وشـدّ انتباهي، منـذ أزيد من عقـد ونيف، الاسـتخدامات الكثيـرة لتقنيـة النّانو في كلّ المجـالات، فجعلت قسـمًا مـن القـراءة والبحـث لهـذا العلـم الجديـد، وتعمّقت فيه كثيـرًا، ثـم كتبـت وحاضـرت حـول اسـتخداماته الطّبيّـة، وفـي تخصصـ الجلديّـة علـى وجـه التّحديـد، وحـاورت الطّـلاب والزّملاء حول تقنية النّانو، كلّما سنحت فرصة ملائمة.

ونفعتني الممارسـة الطبيّـة، برؤية المجتمـع أمامي، ومعرفة أمراضه وعلله، والوقوف على طبيعة أناسـه من كافّة الشّـرائح، فأفدت من حكمتهم، وتعلّمت من صبرهم، وزاد رسوخي المهني بعلاجهـم، ومتابعتهم، وكانت غاية سـعادتي، ومنتهى آمالي، أن يخـرج المريض مـن عيادتي متهلّلًا بعد أن دخلهـا واهن القوى، قد استولى عليه الخوف.

ورسخ في نفسي، وثبت في قناعتي، خلال مسيرتي في طلب العلم، ثمّ أدائي واجب التّعليم، وممارستي لدوري الطّبي والعلاجي، أنّ قوّة الشّخصية، وألقها، وحضورها، لا علاقة لها بالعبوس والتّقطيب، أو الصّعوبة والتّعسير، وأن التّواضع للمعلّم، والطّالب، والمريض، من الكمالات الإنسانيّة، التي حثّنا عليها ديننا الحنيف، وقد سعيت لنقل هذه القناعة لطلّابي وزملائي قدر استطاعتي.

حياة جديدة

وفي أوج قوتي العلميّة، والمهنيّة، والجسديّة، والذّهنيّة، قررت أن أتقاعد من العمل الحكومي، وأتفرغ للعمل الطّبي الخاص الذي بدأته قبل سنوات، وكان قراري نهائيًّا ولا رجعة فيه، ومع رغبة الكلّية وإدارة الجامعة مشكورين ثنيي عن هذا القرار، إلّا أنّي كنت قد عزمت أمري، وتوكلت على الله.

وظلّت صفحتي على موقع الجامعة حتى بعد تقاعدي، كي أكون على صلة مستمرة مع الباحثين والدّارسين، وهو ما كان بحمد

اللّه وتوفيقه، ومع أنّي تقاعدت رسميًّا إلّا أنَّ علاقاتي مستمرّة بالزُّملاء، وزياراتي متكرِّرة للجامعة والكلّية ومكتباتهما.

ولم يكن التَّقاعد للرَّاحة والاستجمام؛ بل لصرف جلّ وقتي لإكمال الخدمة الطّبية والبحثيّة من خلال عياداتي الخاصّة، التي بدأت بها في عام ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، وانتقلت لموقعها الحالي عام ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، وافتتحتها في احتفال حضره أشقائي، وعدد من الأقارب والأصدقاء والزُّملاء، والحمدللّه أنَّ عياداتي -مركز الجلد والحساسيّة- يسودها جوٌّ من الألفة والتَّماسك الإداري، فكلّ من فيها زميل، وأخ، أو ابنة وابن.

ولا بأس من الإشارة إلى أنّي في مشواري الطّبي في العمل الحكومي والخاص، حرصت على الانصراف عن الأعمال التّجميليّة المبتذلة، مع وفرة أرباحها، وكثرتها، وضمان مردودها، فالواجب المهني والخلقي على الطّبيب يقتضي ألّا يرضخ لطلبات المرضى وضغط السّوق، وأن يميّز بين التّجميل، والتّرميم، فالأخير عمل طبي يصلح ما فسد بسبب طارئ ما، وأمّا العبث بالخلقة السّويّة، فأمر نتحاشاه ديانة، ومهنيّة.

إنَّ العمل في التّعليم يمنح المرء حيويّة وتجدّدًا، وممارسة الطّب ومعالجة المرضى تضفي على الطّبيب حكمة وخبرة أعمق بالمجتمع، وإجراء البحوث يعوّد على الصّبر وطول النَّفس.

والالتفات للشّأن العام يخرج بالإنسان من ضيق الحيّز إلى رحابة الفضاء، ولهذه الفقرة مزيد بسط في فصل قادم بإذن الله، والحمد لله على أفضاله الكثيرة على عبده الضّعيف، والحمد لله أن جعلني عاملًا في محراب العلم، ممارسًا في رحاب الصّحة، مشاركًا في ميدان البحث، معينًا في التّجديد والارتقاء بمجالي قدر استطاعتي.

ومن التّحدّث بنعمة الله، والإقرار بفضله، أنّي حين أحضر مؤتمرات عن الجلديّة، وأرى كثرة الأطباء والطّبيبات، فضلًا عن التَّزاحم على وظائف الإعادة، وبرامج الزَّمالة، وأيضًا الظُّهور الإعلامي المتزن لبعض الزُّملاء، أجد في نفسي رَوْحًا وانشراحًا، فهؤلاء حاصل جهود طويلة، وثمار أعمال متواصلة.